خلاصة تاريخ الإسلام

المجلد الأول

- مـــدخل إلى علـــم التـــاريخ
- ومـــــنهج المســـــلمين فيـــــه
- وحاجة الدعاة والمصلحين إليه
- ونبـــــذة عـــــن مدارســـــه

محمد إلهامي

العسكري على تحديد موعد الانتخابات الرئاسية، وبفضل حركته وحده تمهد الطريق للرئيس الإسلامي: محمد مرسي، فقبل ذلك لم يكن الإسلاميون يفكرون ولا كان العسكر يقبل مجرد التفكير في أن يتولى الرئاسة إسلامي، ولكن في ظل وجود حازم، كان اللجوء إلى شخص آخر أقل خطرا مثل مرسي هو الحل الذي اضطر العسكر ومن ورائهم الأمريكان بالقبول به، في تفاصيل كثيرة ليس هذا موضع بيانها.

كان الشيخ حازم أبو إسماعيل نموذجا على السياسي الذي يدرك معنى «اللحظة الفارقة»[1].

٠٢. خطورة الهزيمة

نرى في أخبار التاريخ بوضوح أن وقوع الهزيمة ليس مجرد انتكاس في جولة، فهي ليست كبوة جواد سرعان ما ينهض قائما بعدها كأن لم يكبُ، ولكن الأخطر من الهزيمة ذاتها هو ما يترتب على هذه الهزيمة من الآثار والنتائج المريرة. وهذا الأمر حين يفهمه العامل لدين الله، أو القيادي في حركة إسلامية، فإن تفكيره يختلف تماما في تقدير الأمور وفي التصرف فيها.

وإن من أشنع الأمور التي ابتليت بها حركات إسلامية وقيادات إسلامية أنها تتصور الهزيمة والنكبة أمرًا من البلاء المحتم المقدور، فهي تهون من وقوعه وحدوثه (وتشيع أن هذا من التفاؤل والاستبشار)، ولا تبذل جهدها في تجنبه والفرار منه (وتشيع أن هذا من الصبر والصمود)، وتستقبل وقوعه ببرود (وتشيع أنه صبرٌ ورضا)، بل إن كثيرا منها كأنما حُبِّب إليهم الاستسلام والانسحاب والانبطاح أيضا، يسمون ذلك حكمة وسحبا للذرائع

---

(١) كتبتُ مقالا بتاريخ ٤ إبريل ٢٠١٢ بعنوان: «أبو إسماعيل.. رجل بصير بالتاريخ» ضمن سلسلة مقالات كتبتها في دعمه، يمكن مطالعته على هذا الرابط: <https://melhamy.blogspot.com/2012/04/blog-post_04.html>

وتفويتا للفرص، وما علموا أن هذا هو أكبر الهزيمة وأفدح الضرر!

إن الهزيمة ليست ترفا يمكن احتماله، فلربما كانت القاضية، فإن لم تكن فإن من آثارها ما يستحيل على التعافي والتجاوز، وما يبذل من الجهد في استدراك نتائجها وأضرارها هو دائما أعظم بكثير من الجهد الذي كان يمكن بذله لتجنب الهزيمة والحيلولة دون نزولها.

(١)

في الهزيمة الوحيدة التي نزلت بالمسلمين في حياة النبي ﷺ، في غزوة أحد، عانى المسلمون جراء هذه الهزيمة نتائج خطيرة، ولكن قبل أن ندخل إلى هذه النتائج ينبغي أن نستوعب بعض الأمور:

١. انتهت غزوة أحد بما يمكن أن نسميه نصرًا غير مكتمل، وذلك أن:

- القيادات الكبرى للمسلمين لم يُقتلوا، وهم النبي ﷺ وأبو بكر وعمر، وهؤلاء هم الثلاثة الذين حرص أبو سفيان على معرفة حقيقة خبر مقتلهم، وهذا على خلاف ما وقع للمشركين في بدر من مقتلة زعمائهم الكبار: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأبي جهل وأمية بن خلف.

- كان من عادة العرب أن يقيم المنتصر في مكان المعركة بعض الليالي، يأكل ويشرب ويطرب، في دليل على انتصاره واندحار عدوه.. ولم يفعل المشركون هذا بل سارعوا فمضوا من ليلتهم عائدين.

٢. خرج النبي ﷺ في اليوم التالي بنفس الجيش إلى المشركين، في الغزوة التي سُمِّيت حمراء الأسد[١]، في استعداد لمواصلة قتالهم بعد يوم أحد. وكان المشركون قد ترددوا

(١) مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة.

وراجعوا أنفسهم وفكروا في العودة مرة أخرى إلى المدينة للقضاء على المسلمين، وكانو قد وصلوا إلى الروحاء على بعد ٣٦ كم من المدينة، فلما سمعوا باستعداد النبي وخروجه خارت عزائمهم وأكملوا المسير إلى مكة!

بعد استيعاب هذه الصورة التي تؤكد أن نصر المشركين لم يكن مكتملا، ولا كانت هزيمة المسلمين قاصمة، فإن هذا لم يمنع أيضا من معاناة آثار مريرة نتجت عن هذه الهزيمة، منها:

١. ما أثارته هذه الهزيمة من انهيار الهيبة الإسلامية التي بُنِيت بعد انتصارهم الكبير على المشركين في غزوة بدر، إذ تفاجأت الجزيرة العربية بأن ثلاثمائة خرجوا للإغارة على قافلة تمكنوا من إنزال هزيمة ساحقة بالجيش القرشي الذي خرج مستعدا للقتال، وأن تسفر المعركة عن مقتل قادته الكبار! لقد انكسرت هذه الهيبة وكثير من مكاسبها، وفكرت عدد من القبائل الأخرى في الغدر بالمسلمين، فوقعت حادثتان متزامنتان، بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر فقط، غُدِر فيهما بالمسلمين غدرا شنيعا، وهما حادثتا: الرجيع ومأساة بئر معونة، مات فيهما ثمانين من الصحابة (أي أكثر ممن قتلوا في غزوة أحد نفسها).

٢. ما أثارته هذه الهزيمة من فرحة لدى المنافقين واليهود بالمدينة، إذ رجوا أن يكون ذلك أول الهزيمة والأفول، وحفزهم هذا ليعاودوا للتآمر على النبي ﷺ، فدبَّر يهود بني النضير لاغتيال النبي ﷺ، فأمر النبي بخروجهم من المدينة، فوقف معهم المنافقون ووعدوهم بالنصر والإسناد، فأدى هذا إلى غزوة بني النضير.

٣. وفي مكة انتعشت أحوال المشركين، وأملوا من جديد في إزالة هذه الدولة الإسلامية، وبدا لهم الآن أن الحرب سجال، وأنهم يصيبون منهم كما يُصابون، وهذا -في فهمهم- يعني أن الله ليس مع المسلمين كما يقولون، وإنما هم مثل الناس ينهزمون وينتصرون، وهذا مما ثبَّت بعضا منهم على كفره، وأعطاه الأمل في أن يكون دين آبائهم وأجدادهم هو الدين الحق.

وقضى النبي ﷺ في إزالة آثار الهزيمة عاما، حقق فيه نصرًا في غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤ه)، وثباتا في غزوة بدر الموعد (ذي القعدة ٤ه)، حتى استعاد المسلمون هيبتهم ومكانتهم من جديد.

(٢)

في يوم معركة اليرموك الفاصلة، نظر رجل من المسلمين فرأى حشود الروم الهائلة الممتدة فقال: ما أكثر الروم وما أقل المسلمين! فسمعه خالد بن الوليد فقال له: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين؛ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال»[1].

وتكفي هذه الكلمة برهانا أنها صدرت عن خبير عسكري من أفذاذ المقاتلين في تاريخ الإنسانية، بل هو خيرهم، إذ هو «سيف الله المسلول»، وهي كلمة ذهبية في أحوال النفس والجماعات، فما تُغني الجموع الكثيرة إذا كانت تنهزم مرة تلو الأخرى (وهي حالة الروم يومئذ)، وكيف تقوى الجموع القليلة طالما تنتقل من نصر إلى نصر. وكان بعض جنود الروم في اليرموك مربوطين إلى بعضهم بالسلاسل، فقد استشعرت القيادة أنهم قد لا يثبتون لهجوم المسلمين، فكان هذا مما ساهم في ارتباك انسحابهم ووقوع بعضهم فوق بعض!

في لحظة النصر يكتسب المنتصر قوة مضاعفة، وفي لحظة الهزيمة تخترق المهزومَ ضعف أشد، وقد رأينا بأعيننا في ميادين الثورات والاشتباكات كيف يكتسب الضعيف بسالة وقوة وهيبة إن كان قادما من انتصارات، وكيف يفرّ أمامه ذو العتاد والعدد، ثم رأينا كيف ينقلب نفسُ هذا الوضع بعد شهور أو سنين قليلة لتبدل موازين النصر والهزيمة.

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٣٣٧.

وقد سُئل أبو مسلم الخراساني: من أشجع الناس؟ فقال: كل قوم في إقبال دولتهم[1]! وهذه كلمة ذهبية أخرى تفسر حركة التاريخ.

ولهذا نرى أمرًا واضحا في سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، وهو أمر متكرر لدى سائر القادة العظماء في التاريخ، وهو الحرص التام على عدم حصول الهزيمة، فإذا وقعت فالحرص التام على سرعة النهوض منها وتحقيق نصر سريع يزيل آثارها، فمن هذا:

- ضراعته ﷺ لربه في يوم بدر، واجتهاده في الدعاء، وشدة حرصه ألا تقع بهم الهزيمة وهم قلة، روى عمر بن الخطاب فقال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك[2]. والشاهد هنا هو هذا التخوف من أن هزيمة هذه العصبة ستكون فادحة الأثر، يقول ابن حجر: «وإنما قال ذلك لأنه علم أنه خاتم النبيين، فلو هلك هو ومن معه حينئذ، لم يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان ولاستمر المشركون يعبدون غير الله»[3].

- ما إن وقعت الهزيمة في أحد، حتى نهض النبي ﷺ في اليوم الثاني إلى غزوة حمراء الأسد، وخرج بنفس الجيش، ومنع الذين تخلفوا عنه في أحد أن يخرجوا معه، وسار ثمانية

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣/ ١٤٨.

(٢) مسلم (١٧٦٣).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٢٨٩.

أميال خارج المدينة[1]! وفي عشية أحد صار يُلَقِّن الصحابة ما يردون به على أبي سفيان لكي لا تبتلع نفوسهم الهزيمة، فكان أبو سفيان ينادي: اعل هبل، فيقولون: الله أعلى وأجل. فيقول: لنا العزى ولا عزى لكم، فيقولون: الله مولانا ولا مولى لكم. فيقول: يوم بيوم بدر والحرب سجال. فيقولون: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[2]!

▪ بشراه ﷺ للناس في يوم الخندق، حيث الرعب والزلزلة الشديدة، بأنهم سيفتحون العراق والشام واليمن، فكان في ذلك تثبيتهم وتقوية عزائمهم.

▪ وحين تزلزل جيش المسلمين في حنين، من وقع المفاجأة والكمين الذي أعدَّه رجال ثقيف وهوازن، بدا أن المسلمين مقبلون على هزيمة قاضية، حتى قيل في وصف ذلك «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»، وقال بعضهم: «الآن بطل السحر»، يعني بذلك: سحر الإسلام! فما كان من النبي ﷺ إلا أن انحاز إلى مكان ظاهر يُنادي منه الناس، ويأمر العباس –وكان جهوري الصوت– أن ينادي في المسلمين، ويذكرهم بفضائلهم ومآثرهم: يا أصحاب الشجرة (أي شجرة بيعة الرضوان، حين بايعوا على الموت)، يا أصحاب سورة البقرة، هلموا هذا رسول الله.. ونادى النبي قائلا: «أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب»، فأخذ المسلمون يهرعون إليه ويتجمعون عنده وينحازون إليه، كما تعود البقرة حنينا لأولادها، حتى أن الواحد منهم إذا لم يطاوعه فرسه على الرجوع ألقى بنفسه من عليه وتركه وعاد إلى النبي[3]، فاعتدل ميزان المعركة، وانقلب انهزامهم نصرًا.

▪ وكذا فعل أبو بكر رضي الله عنه، ففي حروبه للمرتدين، كان بنو حنيفة أهل اليمامة من أشد الناس على المسلمين، وقد هزموا جيشيْن للمسلمين بقيادة شرحبيل بن حسنة

---

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٣٩٧؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) البخاري (٢٨٧٤).

(٣) مسلم (١٧٧٥)، أحمد (١٧٧٥)، ابن حبان (٧٠٤٩) بإسناد صحيح.

وعكرمة بن أبي جهل، فلم يتوان أبو بكر أن يرسل إليهم جيشا ثالثا بقيادة خالد بن الوليد فانتصر عليهم وقتل مسليمة الكذاب.

▪ وفي فتوح الروم أخفق جيش خالد بن سعيد بن العاص مرتين أو ثلاثا، فأمدّه أبو بكر بأربعة جيوش أعادت اتزان الموقف العسكري، فأردفهم بجيش على رأسه خالد بن الوليد فانتصر المسلمون واستأنفوا فتوحهم[1].

▪ وفي عهد عمر رضي الله عنه وقعت هزيمة على المسلمين في معركة الجسر أمام الفرس، (١٥ شعبان ١٣ هـ) فلم تمض عشرون يوما إلا وكان المسلمون قد انتصروا في معركة البويب الطاحنة (١٣ رمضان ١٣ هـ).

ولا مجال هنا لاستقصاء واستيعاب الأمر، فهو أمرٌ يعرفه بالطبع والبديهة كل من كانت له مواهب الزعامة، أو كان ذا بصر، إن الهزيمة مريرة الآثار، ولا بد من بذل الجهد كله في تجنبها، ثم في بذل أقصى الجهد في تحقيق الانتصارات التي تزيل آثارها من النفوس والعقول! وقد وصف الله عباده المؤمنين بهذا الوصف العجيب الرهيب، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩].

(٣)

ما كان نابليون بونابرت يتوقع أن يفكر حاكم الإسكندرية محمد كُرَيِّم في مواجهته والتصدي له، لقد كان قائد أقوى جيوش أوروبا، وخلفه تاريخ من الانتصارات الحاسمة

(١) من أفضل الكتب في فتوح الشام، كتاب الأستاذ أحمد عادل كمال، «الطريق إلى دمشق».

التي تزلزلت لها أوروبا وعروشها، فضلا عن التفوق العددي الهائل[1].

ولكن حاكم الإسكندرية لم يقبل إنذاره واتخذ قرار المقاومة، واندهش نابليون من هذا، وأرسل إليه يستغرب أنه يفكر في المواجهة، وكانت معركة باسلة لكنها انتهت بانتصار الفرنسيين، وأُسِر محمد كُريِّم، فكافأه نابليون، وأعاد إليه سيفه، وقلَّده وشاح الثورة الفرنسية تقديرا لبطولته، وأبقاه واليا على الإسكندرية رجاء أن ينحاز إليه، إلا أن هذا لم يغيِّر ولاء البطل الأصيل، وظل باقيا على عداوة الفرنسيين، فلما اكتشفوا هذا حاكموه محاكمة صورية، وألزموه بدفع غرامة ضخمة في ١٢ ساعة وإلا قتلوه، وكان هذا شرطا تعجيزيا.

حينئذ التمس محمد كريم المال من أرباب المال في القاهرة، وكما يذكر الجبرتي «حضر إليه بعضهم، فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث، وصار يقول لهم: اشتروني يا مسلمون. وليس بيدهم ما يفتدونه به وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشيء يصيبه». فلم يستطع جمع المال فقتلوه[2]!

وموضع التأمل هنا هو هذا الفارق البسيط الذي يُقَدَّر بالأيام فقط بين القائد محمد كُرَيِّم وهو يخوض المعركة، وحوله الناس يفدونه بأرواحهم لا بأموالهم وحدها، ونحن لا ندري كم رجلا مات بين يديه، كلهم يقدم نفسه لئلا يصاب قائد المقاومة! ولكنه بعد أن هُزِم وصار أسيرا، وتمكن الفرنسيس من الوضع لم يجد هو نفسه من يفديه بالمال، ففي وضع الهزيمة صار «كل إنسان مشغول بنفسه، ومتوقع لشيء يصيبه» كما يقول الجبرتي!

---

(١) كان تعداد فرنسا ٢٨ مليونا، أي خمسة أضعاف الشعب المصري، وكانت الحملة تتكون من ٣٦ ألف جندي بينما المماليك في مصر لا يزيدون على عشرة آلاف، وفي معركة إمبابة كان الجيش الفرنسي أربعة أضعاف الجيش المملوكي؛ ولذلك عبَّر الجبرتي عن اجتياحهم الإسكندرية بقوله: «هم كالجراد المنتشر». ينظر: الجبرتي، عجائب الآثار، ٣/ ٢؛ جوان كول، مصر تحت حكم بونابرت، ص١٥٦، ١٥٧.

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ٣/ ٧٠، ٧١؛ كول، مصر تحت حكم بونابرت، ص٨٠، ٨٤.

(٤)

يحفل التاريخ والحياة بالمشاهد التي تبدو عصية على التصديق، ولا يمكن تفسيرها إلا بهذه الكلمات: النصر والأمل، أو الهزيمة واليأس. فمثلا:

لماذا لم يثر شعب بني إسرائيل على فرعون مع أنه استعبدهم وأذلهم واضطهدهم بما لا مثيل له في التاريخ، وبلغ من طغيانه وعتوه وجبروته أنه كان يُصدر القرار بقتل الأطفال الذكور الرُّضَّع؟! ومثلهم كثير من الشعوب عاشت عقودا في الاضطهاد دون أن تنتفض ضد الطاغية الذي يقهرها!

لماذا كان المغولي الواحد الأعزل من السلاح قادرًا على إيقاف جمع من أهل بغداد، ويأمرهم بالانتظار في مكانهم حتى يأتي بسيف يقتلهم به، فلا يجرؤون على الحركة ويقفون منتظرين للقتل؟! هل يمكن تفسير هذا المشهد إلا بأن النصر والأمل الذي هو فيه قد منحه قوة عاتية، وبأن الهزيمة واليأس التي كان فيها أهل بغداد قد ألقت في قلوبهم الرعب والفزع وساقتهم إلى الاستسلام؟!

وقد جرت هذه الحكمة على لسان مقاتل عربي من بني عبس كان في الفتوح الفارسية، لما رأى كيف انهار الفرس أمام المسلمين فقال: «أصاب أهلَ فارسٍ يومئذ بعد ما انهزموا، ما أصاب الناس قَبْلَهم قُتِلوا»، فهو يعرف أنها سنة ماضية في المغلوبين المقتولين، ثم أخذ في وصف ما جرى فقال: «حتى إن كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم، فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه»، ومن شدة اليأس قعد جماعة من المقاتلين تحت رايتهم ينتظرون

الموت، فجاءهم فارس واحد هو سلمان بن ربيعة الباهلي فقَتَلهم وسلبهم[1]!

وينبغي ألا نندهش حين نقرأ في سيرة الأبطال والمجاهدين عن الرجل الذي دَوَّخ أعداءه وأرهقهم، ثم هو نفسه بعد أن سُجِن قد أصابه الضعف والوهن، وربما ينتكس وتتبدل مواقفه، ذلك أن سطوة السجن والسجان، وما يلقيانه في النفس من اليأس، هو أمر رهيب! فكم من بطل صفعه في سجنه من كان لا يحلم بأن يمسح له حذاءه؟! وكم من ثائر كاد يُسقط نظام حُكْمٍ ثم جلس في سجنه يكتب خطاب استرحام وعفو؟![2]

وقد رأيت بنفسي مقطعا مصوَّرًا لبعض المسلمين في دولة إفريقية، وهم يُذبحون بالسكين، كانوا يُجلسون في صف واحدٍ، ثم يُنادى على الواحد منهم، فيخرج يسير بقدميه، بلا أية مقاومة، إلى حيث الحفرة التي سيُذبح على حافتها أمام غيره، ثم يُنادى على غيره فيقوم كما قام أخوه ويُذبح كما ذُبح، لا يقاوم ولا يفكر في الهرب. لقد أصابهم اليأس والهزيمة بالشلل التام، فالواحد منهم يساق إلى حتفه كأنه مُخَدَّر!

وقد لاحظ إيريك هوفر أن اليهود الذين سيقوا إلى أفران الغاز والمذابح الجماعية دون مقاومة في ألمانيا النازية هم أنفسهم الذين قاتلوا بكل شراسة في فلسطين، وكثير منهم قُتِل قبل أن يرى أمله، لكنه مع ذلك قاتل عليه، قاتل لأجل الأمل الذي في خياله، بينما قُتِل

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٢/ ٤٢٧.

(٢) جدير بالذكر هنا أنه يجب دائما أن نعذر هؤلاء وهم في محنتهم وفي لحظة ضعفهم، ولا ينبغي لمثل هذه اللحظات أن تخدش صورة البطل، إلا أن ينتكس ويُختم له بالسوء، ويجب أن نتذكر دائما أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهم خير البشر بعد الأنبياء، لم يستطيعوا تحمل العذاب المصبوب عليهم ونطقوا بكلمة الكفر، ما عدا بلال بن رباح. إن هذا المشهد يدلُّ على فضيلة عظمى لبلال رضي الله عنه، ولكنه يدلّ أيضا على أن الذين يستطيعون الثبات تحت العذاب الرهيب هم الندرة المحدودة من البشر، وسائر البشر بعد ذلك لا يطيقون هذا.

آخرون مستسلمين، ولم يدافعوا عن الواقع الذي كانوا يمتلكونه بالفعل[1]!

والخلاصة المقصودة أن الهزيمة وما يترتب عليها من آثار هي من أخطر ما ينزل بالأمم، ويهدم فيها الثقة بالنفس، بل يهدم إيمانها ودينها، وكلما طال أمد الهزيمة زاد اليأس واستحكم، حتى تستسلم.

وهذه الخلاصة تنقلنا إلى سنة أخرى، في غاية الأهمية للعاملين لهذا الدين، نستفيدها كذلك من سنن التاريخ، وهي:

٠٣. ضرورة الصمود

إن القدرة المقاومة في لحظة الضعف وانتشار اليأس أمر لا يتمتع به إلا نوادر الناس. وأولئك هم الذين يكونون ملاذ الأمم وبذرة انتهاضها من جديد! هذا الصنف من الناس هم الذين يصمدون فيقاتلون ويقاومون مهما كانت الظروف، ومهما كانت موازين القوى.

وفي الذروة من هذا الصنف من البشر، أولئك الذين منحهم النبي ﷺ وسام «سيد الشهداء»، وهو الوسم الذي احتفظ به رجل يقاوم في الظرف المستحيل، قال ﷺ: «ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[2].

إنه الرجل الذي يجابه السلطان الجائر بكلمة الحق، وهو يعلم أنه سيموت.. الرجل الذي يقاوم ويعرف أنه سيدفع الثمن لا محالة، وربما يدفعه دون أثر كبير في المعادلة الكبرى.. الاستشهادي الذي سيكون هو أول شهيد في عمليته الفدائية.. الانغماسي الذي يُلقي بنفسه وسط العدو رجاء أن يُنكِّل بهم ويفتح طريقا لأصحابه من بعده.. أولئك الناس

---

(١) إيريك هوفر، المؤمن الصادق: أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية، ترجمة: غازي القصيبي، ط١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١٠م)، ص١٣٠، ١٣١.

(٢) الحاكم (٤٨٨٤) وقال: صحيح الإسناد. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤).

الذين يخرجون عن قانون البشر هم الذين يغيِّرون التاريخ أو يكونون بذرة تغييره!

ولمثل هذا تخشى السلطات والتقنيات الأمنية مما يسمونه «الذئب المنفرد».. لهم تسميتهم ولنا تسمية نبينا بأنه «سيد الشهداء»! أولئك الذين يقاومون في الظروف المستحيلة، كان إيمانهم بقضيتهم أعلى من كل أمل مشهود أو منشود، وفي حالتنا نحن المسلمين، كان إيمانهم بالله وبوعد الآخرة وبالجنة أقوى من كل نتيجة مرتقبة في هذه الدنيا، ولهذا أُطلق على الذين يُقتلون في سبيل الله: شهداء.. أي أنهم شهدوا بأرواحهم على حقيقة الله واليوم الآخرة، وهو أسمى مراتب الإيمان واليقين، فالروح أغلى ما يملكه الإنسان.

أولئك الذين يقاومون في الظروف المستحيلة هم الذين يمهدون الطريق لمن بعدهم، ولذلك وصفهم النبي بالغرباء.. لأنهم غرباء بين الناس كأنهم ليسوا منهم.

إلا أن هؤلاء هم من يجدد الأمل في نفوس المغلوبين، ويجدد الفزع في نفوس الغالبين، يعلنون بأعمالهم هذه أن المعركة لم تنتهِ والاستسلام لم يقع، وما زال ثمة أمل للمغلوب، وما زال ثمة خطر يتهدد الغالب! فهم بتضحيتهم هذه يعلنون أن الأمل لم يمت، وأن اليأس لم يهيمن!

والإسلام يُجَهِّز أبناءه ليكونوا على أعلى قدر من الاستعداد والفعالية، لقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بما ينتشل الإنسان من لحظة الضعف والهزيمة، حين ينهزم بالمعصية أمام نفسه وأمام الشيطان، أو حين ينهزم أمام عدوه من الكافرين، ويمتلئ القرآن بما ينتشل المسلم من اليأس والاستسلام، ويحفزه ويحضه ويحثه على الجهاد والصبر والمثابرة، كما في قوله تعالى ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[يوسف: ٨٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤]، ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:

٢٠٠]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠].

وتكتظ السنة بهذه المعاني كذلك، فالجهاد ذروة سنام الإسلام[١]، والشهيد في أعلى درجات الجنة حتى ما من أحد يتمنى أن يعود إلى الدنيا بعد دخوله الجنة سوى الشهيد، يريد أن ينال شهادة أخرى[٢]، وفي الحديث القدسي يقول ربنا: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم»[٣]، وأخبر النبي عن ربه أنه لا يزال يغفر لعباده ما داموا يستغفرونه[٤]، وأخبر أن الله «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[٥].

هذا هو الأمل الذي لولاه لما كان في المسلمين مجاهد ولا شهيد.. أملٌ عريقٌ راسخٌ من صميم الإيمان لا ينفلت عنه ولا ينفصم، ولهذا كان الإسلام هو الخطر الكبير على الجبابرة والمتكبرين، ولا تزال أحلامهم وآمالهم في تغيير نصوصه وتحريف معانيه وتأويل كلامه تسيطر على مجهودهم، يريدون أن يبدلوا كلام الله.

نضرب الآن أمثلة من التاريخ على ضرورة الصبر والصمود، وكيف أفضى هذا إلى نتائج فارقة وخطيرة، ليرى العامل لهذا الدين كيف يجب عليه أن يتسلح بالصبر والصمود، لا سيما ونحن الآن في أزمنة استضعاف وهزيمة لا بد لنا فيها من هذا الصبر والصمود.

---

(١) أحمد (٢٢١٢١)، الترمذي (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، النسائي (١١٣٩٤)، ابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٢٦٤٢)، مسلم (١٨٧٧).

(٣) مسلم (٢٥٧٧).

(٤) أحمد (١١٢٥٥) بإسناد حسن، الحاكم (٧٦٧٢) وصححه ووافقه الذهبي

(٥) مسلم (٢٧٥٩).

(١)

أولى الناس بالصبر والصمود من أقاموا الأديان من الأنبياء والمرسلين، لا سيما أولي العزم من الرسل، ومثلهم في هذا الجانب أولئك الزعماء الكبار الذين أسَّسوا دولا وممالك، فإن هذا أمر لا يتم بغير عزيمة هائلة وصبر لا ملل معه ولا نكوص عنه، فما من مؤسس دولة ومملكة إلا وهو آية وقدوة في الصبر والصمود، وبذلك استطاع أن يقلب أوضاع زمنه وينشئ دولته، ويغير التاريخ في حياته ومن بعده!

وأعظم هؤلاء قاطبة: نبينا محمد ﷺ، إذ هو الوحيد في تاريخ البشر الذي أقام دينا عظيما، وأقام حضارة عظيمة أيضا، ولهذا وضعه مايكل هارت كأعظم رجال التاريخ، لأنه «نجح نجاحا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي، وهو قد دعا إلى الإسلام، ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا، وبعد ١٣ قرنا من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قويا متجددا»[١].

وتتعدد مواقف صموده وصلابته ﷺ في سيرته، فمنها:

- اشتد ضغط المشركين على أبي طالب ليكف النبي ﷺ، فأرسل إليه أبو طالب في شدة حر الظهيرة، فلما جاءه قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم. فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «ترون هذه الشمس؟». قالوا: نعم. قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعلة»[٢].

---

(١) مايكل هارت، الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ص١٣.

(٢) الألباني، صحيح السيرة النبوية، ص١٤٤؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٥٧. وجاءت رواية أخرى ضعيفة السند بذات المعنى ولكنها مشتهرة، وهي ما روى عنه ﷺ أنه قال: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته**».

▪ حديثه ﷺ لخباب بن الأرت حين جاء إليه يشكو ما نزل بهم من العذاب، فكأن النبي ﷺ رأى في كلامه بعض الضعف، فقال له: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحْفَر له في الأرض، فيُجْعَل فيه، فيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُشَقّ باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عَصَب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيتِمَنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

ومن ذلك ما قام به صاحبه وخليفته من بعده، والمؤسس الثاني لدولة الإسلام، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وثباته وصلابته الهائلة في أحداث الردة، وهي الوقفة التي حفظ الله بها الإسلام والمسلمين، فقد أصرَّ رضي الله عنه على إنفاذ بعث أسامة، لأن النبي ﷺ أوصى بإنفاذه، وأصرَّ على مقاتلة المرتدين جميعا: من انخلع منهم من الإسلام بالكليّة، ومن منع منهم الزكاة، وقال مقالته الشهيرة: «والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»، وكانت وقفته هذه من القوة والرسوخ بحيث قال عمر: «فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر رضي الله عنه بالقتال فعرفت أنه الحق»[2].

(٢)

كان انتصار الإسلام في موجة الفتوح الأولى كاسحا وهادرًا، ولم تزل قوة المسلمين عظيمة تلقي المهابة في نفوس الأعداء، ولم يحدث أن فكر الروم في استرجاع الشام من المسلمين إلا بعد ثلاثة قرون، ثم انتهت دون تحقيق كبير نجاح، حتى جاءت موجة الحملات الصليبية في القرن الخامس الهجري، فاستطاعت الحملة الصليبية الأولى أن

(١) البخاري (٦٥٤٤).

(٢) البخاري (١٣٨٨)، مسلم (٢٠).

تحتل الساحل الشامي، وأن تؤسس أربعة إمارات صليبية، كانت مراكزها في: الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس.

وجاءت هذه الموجة في وقت عصيب انقسم فيه المسلمون بين خلافتيْن: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة العبيدية (الفاطمية) في القاهرة، وكان خط الاحتكاك بينهما في الشام الذي انقسم في الولاء بين العباسيين والعبيديين. ثم إن كلا الخلافتيْن كانتا قد دخلتا في طور من الضعف، فالعباسيون كانوا تحت السيطرة الفعلية للسلاجقة فيما عُرِف بعصر سيطرة السلاجقة، والعبيديين كانوا تحت السيطرة الفعلية لوزرائهم فيما عُرف بعصر الوزراء. ومما زاد في الخطورة أن دولة السلاجقة أيضا قد دخلت في انكسار مفاجئ بعد موت وزيرها الأقوى والأشهر نظام الملك الطوسي، وموت أميرها القوي السلطان ملكشاه في شهرين متتالين (رمضان وشوال ٤٨٥هـ)، فترتب على هذا انقسام الدولة السلجوقية الكبيرة إلى عدة دول، ثم انقسام ولايات الشام بين الأمراء السلاجقة الذين ضربهم التنازع.

في هذا الوضع الممزق جاءت الحملة الصليبية الأولى..

ومع ذلك، فإن النظر في تفاصيل ما جرى من المعارك يشير إلى أن بعض الأمراء لو بذل مزيدًا من الصمود والصبر، لكان مصير الحملة الصليبية هو الفشل، ولو فشلت هذه الحملة الأولى، لظل المسلمون قرنًا آخر على الأقل لا يجرؤ الروم على التفكير في استعادة الشام منهم، ولكن صبر الساعة المفقود هذا قد أورث الأمة قرنيْن من الكفاح الدامي، والذي كانت له نتائج فارقة في كل التاريخ الإنساني، فإن الحروب الصليبية هي واحدة من أهم الأحداث الفارقة في تاريخ هذا العالم.

لا يسعنا التوقف هنا عند كل اللحظات، ولكن اخترنا من بينها هذه اللحظة:

كان أمير أنطاكية يسمى ياغيسيان، وكان ذا ذكاء وبطولة، ولما سمع بتوجه الجيش الصليبي إليه، خشي من خيانة نصارى أنطاكية، فتحايل على إخراجهم منها حتى تمكن من ذلك، وجاء الجيش الصليبي فظلّ محاصرًا للمدينة تسعة أشهر لم يستطيعوا أن يفعلوا فيها

شيئا لما أظهره ياغيسيان من القوة والمهارة، حتى هلك أكثرهم موتا وجوعا وعطشا، يقول ابن الأثير واصفا نتيجة هذا الصمود بأن الفرنجة «لو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام» أي لاحتلوا الكثير من البلدان وليس الشام فحسب.

ولكن الخيانة جاءت من حارس أحد الأبراج، استطاع الفرنجة أن يعدوه بالمال والإقطاع، فخان المسلمين، وفتح لهم الطريق، فانتهزوا فرصة فاقتحموا البلد من هذا المكان!

هنا انهار صمود ياغسيان دفعة واحدة، ففزع واستولى عليه الرعب، وفتح باب البلد وخرج هاربا هائما على وجهه، فكان هروبه هذا، كما يقول ابن الأثير، «معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا».

ومن شدة فزعه ورعبه، لم ينتبه إلى ما حصل إلا «لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله، وكان كالولهان، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقيل: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالما، ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يُقْتَل، وجعل يتلهف، ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشيا عليه، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة فإنه كان قد قارب الموت فتركوه وساروا عنه، واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق، فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية»[1].

وهكذا سقطت أنطاكية، وانفتح الطريق إلى بيت المقدس!

(٣)

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩/ ١٤ وما بعدها.

نجح صلاح الدين في سلسلة انتصارات قوية على جيوش الصليبيين، حتى توَّج ذلك بدرة انتصاراته في معركة حطين التي حطَّم فيها الجيش الرئيسي للصليبيين، ولم يبق بعدها إلا أن يفتح المدن والمعاقل، ففتح بيت المقدس، وسار من فتح إلى فتح، حتى اصطدم بمدينة صور، فحاصرها، وفشل في اقتحامها وتحريرها، لتكون أول إخفاق له بعد سلسلة طويلة من الانتصارات المظفرة!

كان أهم أسباب هذا الإخفاق ذلك الصمود الصلب الذي أظهره فارس صليبي باسل يدعى كونراد دي مونتفرات، حيث قاد فلول المهزومين من الصليبيين اللاجئين إلى صور، وحيث كان العفو الواسع الذي أصدره صلاح الدين عن فرسان الصليبيين وقادتهم –وهذه من أخطائه الفادحة– قد جعل كثيرا من هؤلاء يجددون القوة الصليبية من جديد، ويواجهون بها جيوش المسلمين، ومن هؤلاء كثيرون ذهبوا إلى صور وانضووا تحت قيادة كونراد دي مونتفرات.

أظهر كونراد قيادة ذكية، فأوقع بالأسطول الإسلامي الذي جاء يحاصره من البحر، فضمن بذلك خط إمداد بينه وبين الصليبيين، وصمد حتى دخل الشتاء الذي كان مطيرا باردًا، فاضطر صلاح الدين إلى فكّ الحصار[1]! وتحولت صور إلى مركز المقاومة الصليبية، ومنها انطلقت الأخبار والمبعوثين ليستنهضوا ملوك أوروبا في حملة صليبية جديدة[2]، حتى أثمرت جهودهم فجاءت الحملة الصليبية الثالثة ذات الجيوش الهائلة، وانقلب بها الموقف تماما!! وهكذا «فبفضل هذا الرجل القوي أضحى لصور، الناجية من

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤م)، ص١٣٧، ١٣٨، ١٥٦ وما بعدها.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٠٨؛ ستيفان رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٩٧م)، ٣/ ١٩ وما بعدها.

نكبة الاجتياح الكبرى، في الأيام القادمة دور المنطلق لإعادة الغزو الفرنجي من جديد»[1].

ليس هذا فحسب، بل يقدر بعض المؤرخين أن صور التي أفلتت «بما يشبه المعجزة» من اجتياح صلاح الدين، كانت نقطة تحول في كل تاريخ الحملات الصليبية، بحيث أن صلاح الدين إذا استطاع فتحها فلم يكن ليقع حصار عكا، ولا حتى كانت الحملة الصليبية الثالثة قد استطاعت المجيء أصلا[2]!

(٤)

كان صلاح الدين سخيا في العفو عن الأسرى، بمن في ذلك الملوك والقادة، وقد أتاح هذا لهم فرصة جديدة للانقلاب على عهودهم والتجمع مرة أخرى للانقضاض عليه، وقد دفع جراء ذلك ثمنا فادحا ومريرا مع الحملة الصليبية الثالثة، التي هي أقوى الحملات الصليبية قاطبة.

ومثلما كان صمود كونراد دي مونتفرات نقطة تحول في مسار الحروب الصليبية، فلقد كان صمود صلاح الدين أمام هذه الحملة الرهيبة نقطة تحول كذلك، ففيها اتحد ملوك أوروبا، وعلى رأسهم فريدريك ملك ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وأنفقت عليها أموال طائلة من بينها ضريبة خاصة جُمِعت على يد الباباوات، سُمِّيت «ضريبة صلاح الدين».

استطاعت هذه الحملة استرداد سائر المدن الساحلية من عكا إلى يافا، واستطاعت إنقاذ

---

(١) رنيه غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د. أحمد إيبش، ط١ (أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٤م)، ص٦٦.

(٢) ستانلي لين بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة: د. أحمد سالم سالم، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠١٤م)، ص٤٠٢، ٤٠٣.

المدن التي لم تسقط بعد مثل أنطاكيا وطرابلس، واستماتت في سبيل انتزاع بيت المقدس – الهدف الأساسي الذي خرجت من أجله- التي استمات صلاح الدين في الدفاع عنها، ثم انتهت إلى الصلح الشهير المعروف باسم «صلح الرملة».

لو نظرنا إلى هذه النتائج بعين أوروبا الصليبية وفي ضوء قوة الحملة وضخامتها فهي نتائج ضئيلة، وإذا نظرنا إليها بعين المسلمين وفي ضوء موازين القوة فهي حملة خطيرة هددت كل نتائج الجهاد الإسلامي السابق في سبيل تحرير بيت المقدس، وكانت على وشك أن تسترد بيت المقدس مرة أخرى، لولا استماتة صلاح الدين في الدفاع عنها!

لقد أعادت هذه الحملة حالة التوازن من جديد بين المسلمين والصليبيين، من بعد ما كاد المسلمون يزيلون الوجود الصليبي كله، واستطاعت الحملة أن تمدّ في عمر الوجود الصليبي قرنا آخر من الزمان، وهذه النتائج الضخمة الفارقة يمكن أن نعود بها إلى لحظتيْ صمود: لحظة صمود كونراد دي مونتفرات وهو في قلة وضعف أمام قوة صلاح الدين العاتية، ثم لحظة صمود صلاح الدين وهو في قلة وضعف أمام جيوش أوروبا المتحدة!

(٥)

أختم بهذا المثال الفارق في موضوع الصمود، وهو صمود القسطنطينية!

حين بُعث النبي ﷺ كانت القوى العالمية القائمة هي: فارس والروم، والروم المقصودون هنا هم الروم البيزنطيون، وهم القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، فلقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية الضخمة إلى قسمين: القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية (اسطنبول الآن) وديانته المسيحية الأرثوذكسية ولغته اليونانية، والقسم الغربي وعاصمته روما وديانته المسيحية الكاثوليكية ولغته اللاتينية!

لكن القسم الغربي عصفت به الفوضى، وهاجمته قبائل الشمال، ودخل في طور من

الضعف والتمزق، بينما بقيت قوة المسيحية السياسية والعسكرية والحضارية في القسم الشرقي الذي عاصمته القسطنطينية.

ولما بشَّر النبي ﷺ بفتح القسطنطينية ورومية كان يبشر بسيادة الإسلام على العالم المسيحي كله، ولهذا سأل الصحابة: أيها تفتح أولا؟ فقال: مدينة هرقل[1] (أي القسطنطينية). ولهذا اندفع المسلمون إلى فتح القسطنطينية، وقد كانت الأقرب إليهم جغرافيا، وظلوا يحاولون فتحها إلا أنها صمدت أمامهم ثمانية قرون، ولم يمكن فتحها إلا في منتصف القرن التاسع الهجري على يد السلطان محمد الفاتح في زمن الدولة العثمانية.

ماذا ترتب على صمود القسطنطينية ثمانية قرون؟!

ترتب على ذلك أنها وفَّرت الوقت والفرصة للغرب، القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية القديمة، الذي نسميه الآن: أوروبا الغربية، لينهض ويتقوى ويبزغ من جديد.. ومنذ ذلك الوقت، ونحن نعاني من هذا الغرب الويلات تلو الويلات!

لو أن القسطنطينية لم تصمد كل هذا الوقت، ولو أنها فُتِحت في موجة الفتوحات الأولى في زمن الخلافة الراشدة أو الدولة الأموية، لكان الإسلام قد عمَّ وانتشر في أوروبا كلها: شرقها وغربها، إذ لم يكن ثمة قوة أخرى يمكن أن تقف في وجه الجيوش الإسلامية آنذاك!

وذات الكلام يمكن أن يقال عن صمود فيينا أمام الجيوش العثمانية، لقد صمدت مرتين في عهد السلطان سليمان القانوني، وهو ذروة الدولة العثمانية، في عامي (١٥٢٩، ١٥٣٢م)، ومرة ثالثة في عهد السلطان محمد الرابع، في عام (١٦٨٣م). وكان هذا الإخفاق الأخير في فتح فيينا هو بداية الانقلاب والتحول في قوة الدولة العثمانية، التي دخلت من بعد ذلك في طور الجمود! لقد كانت فيينا القلعة التي احتمت وراءها فرنسا وبريطانيا وبروسيا وإسبانيا،

---

(١) أحمد (٦٦٤٥)، والدارمي (٤٨٦)، والحاكم (٨٣٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ووفَّر صمودها الوقت والفرصة لهذه القوى الصاعدة الناهضة لتؤسس أنظمتها السياسية والاقتصادية الجديدة التي ستجعل منها قوى عالمية ضخمة، ستبتلع فيما بعد الدولةَ العثمانيةَ ذاتَها!

فلو تصورنا أن فيينا قد فُتِحت في زمن سليمان القانوني أو في زمن محمد الرابع، لكان تاريخ الإسلام وأوروبا مختلفا تماما، ولكان الإسلام هو اليد العليا في أوروبا لقرن آخر على الأقل!

وحتى اللحظات الأخيرة في فتح القسطنطينية، كانت المدينة تبدو مستعصية، وقد هلك في فتحها عدد ضخم من الجنود العثمانيين، وعُرِض على السلطان الفاتح ما شاء من الأموال لكي يتراجع عن فتح المدينة، ولكن صموده وإصراره واستماتته في فتحها هو ما جعل الفتح ممكنًا، ولعل الله قد اطلع على إخلاصه وصدق عزيمته ففتح عليه بهذه الفكرة العسكرية العبقرية التي كانت سببا في الفتح، وهو تسيير السفن فوق الجبل في الخطة العسكرية المشهورة في فتح القسطنطينية، وأيده بهؤلاء الجنود الأشاوس الأبطال الذين تم على أيديهم النصر.

ولو تخيلنا أن القسطنطينية لم تُفْتَح في زمن الفاتح، لكانت النتائج أشد سوءا بكثير على مستوى انتشار الإسلام في شرق أوروبا، وعلى مستوى قوة الدولة العثمانية ونموها بالنسبة إلى بقية القوى الأوروبية الأخرى في ذلك الوقت.

تلك النتائج الفارقة التي نعيشها وتؤثر في تاريخ الإنسانية كله، كانت ثمرة صمود بذله الآحاد من الزعماء، أو العشرات من القادة!

٤. أهمية العواصم

تلك واحدة من أهم ما ينبغي على العامل لهذا الدين أن يستوعبه في العمل والحركة، وهو أهمية العواصم!